أثر خطاب الهامش المعاصر على النص القرآني.

الدكتور: عادل مقراني
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.
قسنطينة.

مقدمة:

قد اعتنى علماء الإسلام بالنص القرآني عناية كبيرة منذ فجره الأول حفظا ودراسة وتفسيرا, وشهدت القرون المتعاقبة من عمر هذه الأمة أئمة أعلاما وقفوا أنفسهم خدمة لكتاب الله في علومه المختلفة،وظهرت ثماره فيما تزخر به المكتبات الإسلامية من هذا الإرث الجليل العظيم الذي ينم عن عظمة أبناء هذه الأمة, وجهودهم الكبيرة وسعة معارفهم, وتنوع ذوقهم العلمي وتكامله.

ولقد أخذ تفسير القرآن القسط الأوفر من هذا الجهد, وعلماء التفسير سلكوا في إيضاحه سبلا عدة ومناهج مختلفة متكاملة؛ بحسب مقدار اغترافهم من علومه, ومقدار ولوجهم في بحاره.

ويعد تأويل القرآن الكريم موضع الصدارة بين علماء المسلمين منذ تاريخه الأول،ومرة بعد أخرى تثار تساؤلات حول منهجية وكيفية التعامل مع النص القرآني،مما أظهر أضربا تأويلية معاصرة ترفض القديم ، وتتبنى الخطاب الحداثي الغربي بجميع حيثياته ومرجعياته ؛وقد أثيرت جملة من القضايا حول النص الديني لم تكن محل نقاش في الأزمنة الماضية؛لأنها من قبيل المسلمات الدينية والعقلية عند كل مسلم.

ومن القضايا الجدلية المعاصرة "مساءلة النص ومساءلة الهامش" التي جاءت نتيجة لرفض أصحاب مسالك التأويل المعاصرة للحمولات التاريخية التي ألصقت بالنص عبر تاريخه الطويل؛ مما خلف أثرا واضحا عليه،فنتج

عنه دعوة صريحة للرجوع إلى النص وتجاوز هذه الحمولة التاريخية من جهة مناهجها،و أصولها ومضمونها ،والتحرر لمساءلة النص مباشرة.

ولكن الناظر يجد أن هذه الفكرة قد أعادت الكرة، فأنجبت هامشا آخر اتجهت إليه المساءلة مرة أخرى، وتُرك النص القرآني.

فإذا كان أثر خطاب الهامش القديم العتيق للنص قد عُلمت عيوبه وبُينت مضاره،وجُلي الدخيل فيه،فهل لخطاب الهامش المعاصر أثر على النص؟ وهل سلم مما وقع فيه سابقوه ؟وهل تخلص من مساءلة الهامش حقيقة؟ وهل أزال الحواجز عن النص؟ وهل تعتبر نواتجه من الهوامش أم لا؟

وبيانا لذلك رأيت بيانها في المسائل الآتية:

المطلب الأول: مفهوم النص،ومفهوم خطاب الهامش .

المطلب الثاني: المرجعيات الإيديولوجية لخطاب الهامش المعاصر.

المطلب الثالث: أثر خطاب الهامش المعاصر على النص القرآني[المضمون، المناهج، المصادر].

خاتمة المداخلة،وضمنها أهم النتائج والتوصيات.

المطلب الأول: مفهوم النص وخطاب الهامش المعاصر .

الفرع الأول: مفهوم النص.

أولا:النص لغة:تدل كلمة نص في اللغة على جملة من المعاني، وهي: الرفع ، والتحريك،والتقصي، والوقف، والمنتهى[1]

وهذه المعاني تدل كلها على البروز والظهور وغاية الأمر ومنتهاه.

ثانيا:النص اصطلاحا: اختلفت تعاريف العلماء والمختصين لمصطلح النص لأمرين:

-**الأول**: بحسب الاختصاص.

-**الثاني**: بسبب الإيديولوجية.

ومن جملة هذه التعاريف:

1- معجم المصطلحات في اللغة والأدب:لمجدي وهبة وكامل المهندس: لكلمات المطبوعة أو المخطوطة التي يتألف منها الأثر الأدبي.

2- أما في اللغات الأجنبية فالنص(TEXT) مشتق من الفعلTEXTEREفي اللاتينية،والذي يعني الحياكة ، والنسيج،

3- في حين أن تعريفه في قاموس LAROUSSE (الفرنسي) (النص) هو مجمل المصطلحات الخاصة التي نقرؤها عن كاتب.

4- وتعريفه في قاموس (ROBERT) الفرنسي (النص) مجموعة من الكلمات والجمل التي تشكل مكتوبا أو منطوقا.

5- والنص بتعريف قاموس الألسنية(لاروس) هو المجموعة الواحدة من الملفوظات (ENONCES) أي الجمل المنفذة،حين تكون خاضعة للتحليل،تسمى (نصا) فالنص عينة من السلوك الألسني،وإن هذه العينة يمكن أن تكون مكتوبة أو منطوقة.2

6- عند علماء الأصول:" للفظ الذي يفيد معناه بنفسه من غير احتمال"3

7- وعرفه حامد نصر أبو زيد:" في حقيقته وجوهره منتج ثقافي ،والمقصود بذلك أنه تشكل في الواقع والثقافة"4

والمقصود بمصطلح النص في بحثنا: كلام الله المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم المعجز بلفظه المتعبد بتلاوته المنقول بالتواتر المكتوب في المصاحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر الناس، المسمى بالقرآن الكريم.

الفرع الثاني: خطاب الهامش المعاصر:

أولا:الخطاب لغة:

"الخطب: الشأن، والأمر صغر،"الخَطْبُ:الشأنُ، والأَمْرُ صَغُرَ أو عظُمَ،ج: خُطُوبٌ. وخَطَبَ الخاطِبُ على المِنْبَرِ خَطَابَةً، بالفتح،وخُطْبَةً، بالضمِ، وذلك الكلامُ: خُطْبَةٌ أيضاً، أو هي الكلامُ المَنْثُورُ المُسَجَّعُ ونحوه.ورجلٌ خطيبٌ:حَسَنُ الخُطْبَة"[5]

ثانيا:الخطاب اصطلاحا:

يعد مصطلح الخطاب **Discourse** من القضايا الشائكة لحداثة المفهوم، واختلاف مرجعياته الإيديولوجية ، حيث يعرف تبعاً لنوع الدراسة.

والمقصود في بحثنا هو: الكتابات الحداثية حول النص القرآني تأويلا، أو نقدا

ثالثا: المقصود بخطاب الهامش المعاصر للنص القرآني.

هي :القراءات الحداثية العربية المعاصرة للنص القرآني ،وجعلتها هامشا لأمور،منها:

1- لعدم استعمال الحداثيين لمصطلح التفسير في كتبهم ودراساتهم؛ بل يذكرون مصطلح " القراءة".

2- لانفصال القراءة الحداثية عن النص القرآني- كتب مستقلة-، بخلاف كتب التفسير تتضمن القرآن وكلام المفسر، والاستثناء قليل جدا ،كتفسير الجابري مثلا.

3-القراءات الحداثية لا تتجه لبيان النص الديني أصالة ؛بل غالبها دراسات نقدية،واعتراضات على النص القرآني،فهي نقد لمعارف النص ،وليس كشفا لدلالاته ،ومقاصده.

4-عدم براءة قراءة الحداثيين ؛لأن كل قراءة هي إساءة قراءة؛للخروج من القراءات المألوفة،ولاعتقادهم بعدم تحصيل اليقين في جميع مضامين النصوص القرآنية.

المطلب الثاني: المرجعيات الإيديولوجية لخطاب الهامش المعاصر.

لكل فكرة مرجعيتها الإيديولوجية التي تتحرك الأقلام وفقها- الأقلام تحركها العقائد-،والملاحظ أن الحداثيين قد سلكوا في مرجعياتهم الإيديولوجية مسالك لم تكن متبعة حتى عند أصحاب المدرسة العقلية الاجتماعية الإصلاحية ،وهذا ما تجلى في كتاباتهم تصريحا أو تلميحا،ومن أهمها:

أولا: الإيديولوجية المادية الماركسية الجدلية:

وهي جزء من الأنسنة،لأن من أصولها المقررة أن الدين وليد الأرض، وليس وليد السماء، والإنسان هو الذي يخلق الدين ،وليس العكس،وهي أعظم الأسلحة لمواجهة القراءة التراثية للنص القرآني،وقد اعتمد عليها المهندس محمد شحرور اعتمادا كليا في كتابه " الكتاب والقرآن" حيث عقد

بابا خاصا سماه" جدل الكون والإنسان" وضع في فصله الأول: "قوانين جدل الكون"،وقال في هذا المبدأ الماركسي:" وسنبدأ بالحديث عن الجدل المادي الداخلي – جدل هلاك الشيء باستمرار– وعن الجدل المادي الخارجي – جدل تلاؤم الزوجين– "6

وفسر كثيرا من الآيات **وفق مبدأ صراع المتناقضات**7 من ذلك:" مخلقة وغير مخلقة"،"صنوان وغير صنوان"،" متشابه وغير متشابه"،" معروشات وغير معروشات".

كما فسر بعضها **وفق قانون نفي النفي**8 الذي هو امتداد لقانون المتناقضات من ذلك لفظة " التسبيح" حيثما وقعت.

وقد سار على هذا الأصل العقدي أغلب رواد الحداثة العرب ،قال حسن حنفي:"كلام الله إذن استجابة لكلام البشر ...فالوحي والواقع صنوان على مستوى الصياغة اللغوية ،وعلى مستوى الاهتمامات الفعلية"9.

وبهذا التأصيل يصير الوحي مجرد اقتراحات قابلة للصواب والخطأ،كما قال أركون عن القرآن الكريم:

" يقترح معنى للوجود وهو معنى قابل للمراجعة والنقض"10 وقال أيضا:"فالطبيعة هي الوحي، والوحي هو الطبيعة ،وكل ما يميل إليه الإنسان هو الوحي، وكل ما يتوجه به الوحي هو اتجاه في الطبيعة، الوحي والطبيعة شيء واحد ،ولما كانت الطبيعة مستمرة فالوحي بهذا المعنى مستمر، والنبوة دائمة ،ولكننا أنبياء من الطبيعة"11،فالوحي من صنع أفكار الإنسان .

ثانيا: الإيديولوجية الداروينية12 .

وتجلت هذه الأيديولوجية في كتابات المهندس شحرور جليا من خلال تصريحه أو تطبيقه لهذه النظرية في تفسيره لآية 29 من سورة الشورى" وما بث فيهما من دابة" الذي اصطلح عليه" بالبث" حيث قال:"أساس الحياة العضوية النباتية والحيوانية واحد،وتم الانتشار والتغير في الأنواع عن طريق البث الذي جاء نتيجة لقانون التطور والارتقاء ولا زال عمل القانون مستمرا دون توقف"13

وقد صرح بهذه المرجعية العقدية فقال :" وخير من أول آيات خلق البشر عندي هو العالم الكبير تشارلز داروين ...فقد كان داروين يبحث عن الحقيقة في أصل الإنسان ،والقرآن أورد حقيقة أصل الإنسان -كذا-،فيجب أن يتطابقا إن كان داروين على حق ،وأعتقد أن نظريته في أصل البشر في هيكلها العام صحيحة لأنها تنطبق على تأويل آيات الخلق"14

وقال في معرض ثناءه على نظرية النشوء والارتقاء:" وحيث يمكن استنتاج نظريات علمية جديدة تعتبر قفزات هائلة في المعرفة الإنسانية مثل نظرية النشوء والارتقاء لداروين ؛لأنها تعد نموذجا حيا ممتازا للتأويل"15

ثالثا : إيديولوجية أنسنة النص القرآني،أوإيديولوجية دنيوية النص القرآني:

ومضمونها رفض كل معرفة خارجة عن الإنسان،ولو كانت من قبيل الوحي أو الدين، وغرض هذه المرجعية رفع عائق القداسة عن النص القرآني ،واعتبار النص وضعا بشريا،قال ناصر حامد أبو زيد:" إن القرآن نص مقدس من ناحية منطوقه؛لكن يصبح مفهوما نسبي والمتغير أي :من جهة الإنسان ويتحول إلى نص إنساني يتأنسن النص منذ لحظة نزوله الأولى

؛أي قراءة النبي له [لحظة الوعي] تحول من كونه نصا إلهيا وصار فهما نصا إنسانيا".16

وقال حامد نصر أبو زيد:"النص منذ لحظة نزوله الأولى تحول من كونه نصا إلهيا ،وصار فهما إنسانيا ؛لأنه تحول من التأويل إلى التنزيل"17

قال حامد نصر أبو زيد:"إن النصوص الدينية نصوص بشرية، بحكم انتمائها للغة والثقافة في فترة تاريخية محددة ،هي فترة تشكلها وإنتاجها،فهي بالضرورة نصوص تاريخية"18

كما سعى في نزع القداسة عن القرآن،كما فعل الغرب مع النصوص الدينية- المحرفة- ،وصرح بذلك فقال:"إن الحركات الأصولية جاءت لكي تزيد التقديس قداسة أو قتامة ،وتجعله يضغط أكثر فأكثر على الأذهان والعقول ، في حين أن الغرب يمشي نحو حضارة نزع التقديس عن الأشياء"19.

كما يعلل أبو زيد لهذه الآيديولوجية بقوله:" إن القول بإلهية النصوص والإصرار على طبيعتها الإلهية تلك يستلزم أن البشر عاجزون بمناهجهم عن فهمها ما لم تتدخل العناية الإلهية بوهب البشر طاقات خاصة تمكنهم من الفهم"20.

وتطبيقا لهذه الايديولوجية تم حذف جميع المصطلحات الشرعية التي تدل على التقديس والتعظيم، واستبدالها بمصطلحات جديدة تدل على المادية،كاستبدال نزول القرآن بالواقعة القرآنية، والقرآن بالمدونة الكبرى،أو المتن القرآني، والآيات بالعبارات،وغيرها كثير؛بل صارت كلمة القرآن غير مرغوب فيها ،كما قال محمد أركون:" إن هذه الكلمة

مشحونة إلى أقصى حد بالعمل اللاهوتي والممارسة – الطقسية– الشعائرية الإسلامية المعاصرة منذ مئات السنين ،إلى درجة يصعب استخدامها كما هي ،فهي تحتاج إلى تفكيك مسبق من أجل الكشف عن مستويات المعنى التي طمست من قبل التراث التقوي الورع"21

وقد قادتهم هذه الإيديولوجية إلى نتيجة حتمية وهي اعتقاد عدم اكتمال النص القرآني ،قال الطيب تيزيني:" فإننا في الاختراق الحالي نواجه المسألة من حيث هي مسالة حول " تمامية المتن القرآني" وكما هو بين فإن إجماعا على هذه التمامية يغدو والحال كذلك أمرا خارج المصداقية التاريخية التوثيقية"22.

وقال أيضا:"أن كلمة القرآن تفرض نفسها على الباحث المسلم بكل هيبة التقديس التاريخية ،وتسحقه تحت وطأتها فلا يعود يجرؤ على طرح أي سؤال عليها؛ولذا فلكي نستطيع أن نفهم القرآن فإنه ينبغي علينا مسبقا أن نتخلص من الهيبة اللاهوتية الهائلة عندئذ، وعندئذ فقد نستطيع أن نرى القرآن في ما ديته اللغوية، وتراكيبه النحوية، والمعنوية، ومرجعياته التاريخية المرتبطة ببيئة شبه الجزيرة العربية"23

بل أقام مشروعا انتقاديا للقرآن الكريم ،ففي كتابه الفكر العربي عقد فصلا سماه:" التاريخ الانتقادي للقرآن الكريم" ومما قال فيه:"إننا لا ندل بالتاريخ الانتقادي على البحوث الرامية لإقامة طبعة انتقادية للنص القرآني وحسب؛ بل إننا نتطلع إلى مراجعات إجمالية للقراءات المختلفة."24

ومن نماذج نقده للقرآن قال محمد أركون:"نحن نعلم أنه نادرا ما تشكل السورة القرآنية وحدات نصية منسجمة،وإنما تشكل في الغالب من نوع من التجاور بين الآيات التي قد تختلف قليل أو كثيرا في تواريخها ، أو من حيث

ظروف الخطاب الذي لفظت فيه لأول مرة، أو من حيث مضامينها ،أو صياغتها التعبيرية"25

رابعا: إيديولوجية أرخنة النص القرآني:

ومفهوم ذلك أن النص القرآني موجه لأناس بأعيانهم في القرون الماضية، وثقافته تتناسب مع ثقافة هذه العصور الغابرة ،وبذلك نفي استمرارية مرجعية النصوص القرآنية في باب العقائد أو الأحكام أو الأخلاق لأنها "تأرخنت"،وسيؤدي ذلك للتخلص من عدة أمور،كما قال أركون:

- التخلص من الوظيفة الشعائرية للنص المقروء.

- التخلص من الوظيفة المعيارية للنص المكتوب ،يعنى انتهاء دور معيارته للحق والباطل ، والخطأ والصواب وتتكرس النسبية 26

- التخلص من العودة إلى النموذج النبوي ،لتاريخيته27

وهذا ما صرح به حامد نصر أبو زيد بقوله عن القرآن:"خطاب تاريخي ...لا يتضمن معنى مفارقا جوهريا ثابتا"28وبذلك تصير أحكامه العملية مرحلية تاريخية ،وليست دائمة،كما قال خليل عبد الكريم: "إنها سوف ترفع الحرج والعنت عن المخاطبين بتلك النصوص اليوم؛لأنها نصوص تاريخية"29

ونصوص القرآن الكريم بحسب تصورهم لها إطارها الاجتماعي التاريخي الذي ولى إلى غير رجعة، كما قال أركون: "تعبر عن روح ثقافة بأكملها،أي ثقافة منغلقة ضمن إطار زماني مضى وانقضى"30

المطلب الثالث: أثر خطاب الهامش المعاصر على النص القرآني.

لقد كان لخطاب الهامش المعاصر أثرا كبيرا على النص القرآني،خاصة بالنسبة للطبقة العربية المشبعة بالثقافة الغربية، بل صار يمثل نموذجا عصريا لفهم الدين عندهم ،وكيفية التعامل معه ،ولم يقتصر هذا الأثر السلبي على ناحية معينة ؛بل تجلى في مضامين ومصادر،ومناهج تأويل النص القرآني.

أولا: أثر خطاب الهامش المعاصر على مضمون النص:

والملاحظ على خطاب الهامش المعاصر أن أغلبها لا يتعلق بالنص،وإنما هي تنظيرات واستشرافات لا تمت للتفسير بصلة،والدليل على ذلك عدم وجود تفسير تتجلى فيه أصول واعتقادات الحداثيين باستثناء ما كتبه الجابري في تفسيره لسورة البقرة قبل أن يموت،وقد تخلى فيه عن كثير مما كان يقرره .

فليس القصد منها بناء عمل تفسيري يليق بكتاب الله تعالى بقدر ما هي كتابات تهدف لهدم الموروث العلمي القديم والمعاصر؛لقطع الصلة بين السلف والخلف،وبذلك نرجع إلى رق العبودية الفكرية للغرب .

ومن أهم الآثار الواقعية لخطاب الهامش المعاصر على النص القرآني المتعلقة بالمضمون:

1-التشكيك في النص القرآني:وهذا التشكيك من جهات:

أ- **الجهة الأولى: التشكيك في المصدرية،ووثاقة النص القرآني** ،وهذا يدل عليه توظيفهم للمنهج التاريخاني في تأويلهم،قال أركون:"لأن القراءة التاريخية للقرآن،أو قل التفسير التاريخي لآياته يؤدي إلى التشكيك بذلك التصور الأرثودكسي المرسخ في الوعي الجماعي عن القرآن بصفته كلام الله

الحرفي النازل من السماء إلى الأرض ، والمنقول من فم الله كلمة كلمة إلى البشر عن طريق النبي صلى الله عليه وسلم ،هذه الصورة المرسخة في الوعي الجماعي الإسلامي تهتز إذا طبقنا التفسير التاريخي على القرآن، ولذلك فإنهم يتحاشونه بأي شكل ،ويتهمون المستشرقين الفيلولوجيين بمحاولة تدمير الإسلام...التي أصبحت عبارة عن عقائد مقدسة لا تناقش ولا تمس"[31]

ب-الجهة الثانية: التشكيك في صلاحية دلالاته لكل زمان ومكان،وهذا يدل عليه توظيفهم للمنهج السيميائي الخاص بنقد الكتب الدينية عموما ،قال زكي مبارك :"والقرآن نثر جاهلي ،والسجع فيه يجري على طريقة الجاهلية حين يخاطب القلب والوجدان،ولا ينكر متعنت أن القرآن وضع للصلوات والدعوات ، ومواقف الخوف والرجاء ،سورا مسجوعة تماثل ما كان يرتله المتدينون من النصارى واليهود والوثنية"[32]

ج-الجهة الثالثة:التشكيك في عمومية الرسالة وقصرها على من نزل فيهم القرآن. وهذا يدل عليه توظيفهم للمسلك الألسني في تأويلهم،فنصوص القرآن الكريم بحسب تصورهم لها إطارها الاجتماعي التاريخي الذي ولى إلى غير رجعة،كما قال أركون:"تعبر عن روح ثقافة بأكملها،أي ثقافة منغلقة ضمن إطار زماني مضى وانقضى"[33].

وقال أركون:" ودون أن نعتبر القرآن كلاما آتيا من فوق ،وإنما فقط كحدث واقعي، تماما كوقائع الفيزياء والبيولوجيا التي يتكلم عنها العلماء ،أن القرآن يتجلى لنا كخطاب خاص له ماديته وبنيته التي يمكن لباحث الألسنيات أن يكشف فيها أسلوبا خاصا في تشكيل المعنى وإنتاجه"[34].

2-الهامش المعاصر يميل لنقد النص الديني بدل تفسيره:

لأن هدف القراءة الحداثية إنتاج نص آخر،وليس مسايرة النص القرآني من خلال بيانه، وكشف معانيه،فهذا غير مراد في التأويلية المعاصرة،قال حامد نص أبو زيد :"لذا يلتفت في الخطاب إلى ما يسكت عنه النص،وما يحجبه من بداهات ومصادرات ،ولا ينظر إلى امتلائه وإحكامه واكتماله؛بقدر ما ننظر إلى نقصه وتصدعه وفجواته"35.

لذا فمهمة الحداثي إنطاق الصوامت أو ما يسمى بـ "الفراغات" أو "ما بين السطور"،كما قال عبد العزيز حمودة"إنطاق الصوامت، أي قراءة المعنى بين السطور ،وليس في السطور ذاتها؛لأن الناقد البنيوي لا يناقش ما يقوله النص، بل ما لا يقوله ويصمت عنه"36

وقد سار أصحاب هذا الاتجاه على منهج الغربيين في نقدهم للكتب المحرفة، فكان قصدهم تطبيق قواعد النقد على القرآن الكريم لإذهاب قداسته وعظمته من النفوس؛ليتسنى لهم نشر دينهم الجديد ، قال أبو زيد:"إن النص القرآني إن كان نصا مقدسا ؛إلا أنه لا يخرج عن كونه نصا ؛فلذلك يجب أن يخضع لقواعد النقد الأدبي كغيره من النصوص الأدبية".37

فالتأويل المعاصر إنتاج لنص جديد،لقابلية النص القرآني للمعاني المضافة إليه مطلقا،كما قال حامد نصر أبو زيد:"ويظل إنتاج الدلالة فعلا مشتركا بين القارئ والنص،ويضل النص متجددا بتعدد القراء من جهة، وباختلاف الظروف من جهة أخرى".38

3-القطيعة مع جميع القراءات التراثية ،سواء التأسيسية أو التجديدية:

فأما قطيعتهم مع القراءات التأسيسية فتمثلت في تخليهم عن طرق ومصادر التفسير الأصيلة العتيقة، وهي: القرآن، والسنة، وأقوال الصحابة والتابعين ،واللغة العربية الحقيقية،وأما قطيعتهم للقراءات التجديدية فتمثلت في قطع الصلة مع جهود وفهوم علماء الإسلام ،والتجاؤهم إلى فهوم فلاسفة الغرب من الملاحدة وغيرهم.

والملاحظ أن رفضهم للسنة ليس بقصد الرجوع إلى القرآن،وإنما للتخلص من قيودها للتحرر لتقديس عقولهم وذواتهم،قال حامد نصر أبو زيد :" فالقراءة البريئة التي دامت طيلة عصور طويلة للنص ماتت مع الحداثة،ولا يملك بعض بسطاء النقاد إلا البكاء على قبرها ،فقد ولى - اندثر - عصر القراءة البريئة للنص إلى غير رجعة"39

بل تعدى الأمر إلى اتهام القراءات القديمة للنص القرآني،كما قال حامد نصر أبو زيد:" إذ لا بد من التسليم بأنه لا توجد ثمة قراءة بريئة".40

4-زعزعة مسلمات النص القرآني،وذلك من خلال مبدأ لا نهاية المعنى:

فقداسة القرآن أمر بدهي لا يمكن لأي مسلم أن يتجاوزه ؛لأن تعظيم القرآن دليل الإسلام،وعلامة الإيمان،أما مقصد الحداثيين فزعزعة وإزالة هذه العقيدة الراسخة في قلوب أهل الإيمان حيث قال حامد أبو زيد:" فإذا مات المؤلف ، وتعددت القراءة انفتح الفضاء التأويلي إلى ما لانهاية ،وهو ما يسمى بلا نهاية المعنى ،فليس ثمة عناصر جوهرية ثابتة في النصوص، بل لكل قراءة جوهرها الذي تكشفه في النصوص"41

فهذا التأويل المفتوح للنص القرآني ينفي مسلماته"ويصبح القرآن بذلك عجينة يصنع منها ما يشاء من

الأشكال والألوان، وتصبح مهمة القرآن في هذه الحالة ليست مهمة معيارية تربوية،وإنما مهمة ترويجية

تبريرية، وعلى كل إنسان أن يختار معتقده وسلوكه أولا، ثم يبحث في القرآن عما يبارك له في ذلك ،وهو

ما لن يعدمه إذا ما أحسن استخدام المداخل الآنفة التي يسلكها الخطاب العلماني"42

5-نفيهم للحقائق القرآنية المطلقة،ومقاصده الثابتة :

قال حامد نصر:" وبناء على هذا المبدأ ستنتهي هذه القراءة إلى أن لا يكون للنصوص الشرعية معنى ثابت؛فما يفهم عند أهل زمن على أنه مطلوب يصبح عند غيرهم غير مطلوب،وما يفهم عندهم على أنه غير مطلوب يفهم عند غيرهم على أنه مطلوب ،ونتيجة تغير الثقافات بين الأجناس"43.

وقال أركون:"فالقرآن هو نص مفتوح لجميع المعاني ،ولا يمكن لأي تفسير أو تأويل أن يغلقه أو يستنفذه بشكل نهائي"44

فلا وجود لفهم متفق عليه ولو كان إجماعا ،قال أركون:"إن القراءة التي أحلم بها هي قراءة حرة إلى درجة التشرد والتسكع في كل الاتجاهات ؛إنها قراءة تجد فيها كل ذات بشرية نفسها"،45فهذه دعوة لقراءة غير متناهية،وناسخة لكل القراءات القبلية ،ومؤسس لدين آخر خارج عن القرآن والسنة النبوية.

6-الهامش المعاصر بديل عن النص القرآني:

قال حامد نصر أبو زيد:" التأويل هو الذي يمثل الوجه الآخر للنص في فهمنا المعاصر"46، ولأن من يقول ما يراد في النص فهذه قراءة ميتة ،كما قال علي حرب:" فالقراءة التي تقول ما يريده المؤلف لا مبرر لها أصلا،فثمة قراءة تلغي النص، تقابلها قراءة تلغي نفسها،وهي أشبه بالا قراءة ، ونعني بها القراءة الميتة،أما القراءة الحية إنها قراءة تكون ممكنة وفاعلة منتجة في الاختلاف عن النص،وبه أو له"47

وقال أيضا:"القراءات المهمة للقرآن ليست هي التي تقول لنا ما أراد النص قوله،وإنما تكشف عما يسكت عنه النص أو يستبعده أو يتناساه،وأيضا القراءة الخلاقة هي التي تتجاوز المنصوص عليه والمنطوق به"48

بل وصلوا إلى ترك النص الشرعي مطلقا؛لأنه يمثل عائقا،كما قال حامد نصر أبو زيد:"لا خلاص إلا بتحرير العقل من سلطة النصوص الدينية، وإطلاقه حرا يتجادل مع الطبيعة والواقع الاجتماعي والإنساني،كما يتجادل مع الغيب والمستور".49

ثانيا: أثر خطاب الهامش المعاصر على مصادر التأويل:

يقوم التفسير المقبول على أصلين عظيمين؛ الأول :صحة مصادر التأويل، والثاني:سلامة منهج التأويل؛لأن الخلل والشذوذ والخطأ والاختلاف يكون بسبب انحراف المفسر في هذين الأصلين العظيمين, فكان من الواجب عليه أن يصون مصادره ومنهجه عن كل دخيل مذموم ؛لأن جناية الدخيل بجميع أنواعه على التفسير عظيمة،وأثره في تحريف دلالات القرآن ومعانيه معلومة.

والمتتبع لمصادر خطاب الهامش المعاصر يجدها كلها من قبيل المصادر الدخيلة،إذ لا يكاد القارئ يجد مصدرا أصيلا –القرآن، السنة،أقوال الصحابة،أقوال التابعين، اللغة العربية الحقيقية،الاجتهاد المحمود المتقدم أو المتأخر– وإذا وجد فأغلبه بقصد نقضه ورده،أو لتأييد فكرة غربية،وذلك بتحريفه أو تأويله تأويلا فاسدا، ومن أهم مصادر خطاب الهامش المعاصر:

1–الاعتماد على علم اللسانيات والسيمياء :

وتوظيف هذين العلمين في قراءة النص القرآني للتأكيد"أن القرآن موضوع لغوي ليخلص إلى جملة إجراءات تعيد النظر في كونه كلاما لا يمكنه أن يقلد ، ومن ثم وعطفا على ترتيب المسائل التي أسس بها لمقاربته اللغوية،فان اعتبار القرآن موضوعا لغويا ثم دراسته، ينتهي إلى امتناع تقليد القرآن ،ولعله هو الأهم في المقاربة على الإطلاق"50

قال أركون :"إن أجدى السبل المتبعة اليوم بكثرة من اجل الانخراط في بحث مفتوح عن المعنى ،مثل هذا هو ذلك الذي دشنته اللسنيات والسيميولوجيا...فإن اللغة هي أداة للاتصال ضمن هذا المعنى،فإننا نجد أن الألسنيات والسيميوجيا أمر لا بد منه من أجل جعل الروابط مفهوم بين الدين والتاريخية"51

وهذا المبدأ يراد به نزع هيبة القرآن الكريم لإخضاعة للتاريخانية ،وهذا ما ذهب إليه محمد أركون بقوله:"إن دراسة القرآن دراسة ألسنية لغوية محضة ؛الغاية منها التحرر من هيبة النصوص اللاهوتية ،وتجلية حقيقتها ؛لأنها تبدو فوق الزمان والمكان والمشروطيات اللغوية،وهذه الدراسة تبين أنها نصوص كغيرها من النصوص اللغوية تنطبق عليها القوانين النحوية والصرفية نفسها التي تنطبق على غيرها"52

وبذلك إخضاع القرآن الكريم لنظريات النقد الغربية،مما يدل على عدم قدسيته ،وعظم مكانته، كما هو حال التوراة والإنجيل المحرفتين عند الغرب.

ويتجلى هذا الاعتماد في توظيف المصطلحات اللسانية السيميائية في إحداث القطيعة الكلية مع المعارف السابقة ،لاعتقاده بضلالها وانحرافها،وعدم مناسبتها للعصر،فالمصطلح نابع من روح الأمة وعقيدتها،ومعبر عن فكرها وثقافتها،قال أركون :"إننا نستخدم المصطلحات التقنية الصعبة والجافة والتجريدية لعلم السيميائيات (علم العلامات،والرموز اللغوي) ليس حبا في التعقيد أو جريا وراء الموضة الباريسية ...وإنما من أجل انجاز مهمة فكرية خصوصية...فإننا مضطرون لأن نتحاشى كليا تلك المفردات الشائعة والمشحونة بشكل ثقيل جدا بضلال المعاني اللاهوتية المفقودة، والمستمرة عبر القرون"[53]

ومن أظهر خصائص مصطلحات الحداثيين في كتاباتهم :

- توظيف مصطلحات ضبابية،لها دلالات مفتوحة؛ بقصد تفريغ القرآن من مضمونه الاعتقادي والتشريعي والأخلاقي،وتهيئته لحمل جميع المعاني والدلالات التي يمكن أن تلصق به ،ونتيجة هذا العمل تقويض دعائم وجود الأمة،بطمس تراثها،لأن لكل حضارة خصوصية في مصطلحاتها .

- أغلب المصطلحات تنقل من بيئة مختلفة تماماً ،وتسقط على أفكارنا مُحملة بخلفياتها وإشعاعاتها القاتلة ؛ لعظم جناية المصطلحات على العلوم .

- جميع هذه المصطلحات لها مرجعية عقدية ،فالألفاظ قوالب المعاني، ومن هذه المصطلحات: الدغمائية، والغنوصية، والأبستمولوجية، والأمبريقية، والأنسنة، والإسلاموية،والسلفوية ،والزمكانية،والمكانزماتية، والهرمونوطيقية.

– صعوبة مصطلحات الدراسات القرآنية قصد تمييع المعاني الأصيلة.لإقناع القارئ بعلمه وتضلعه في هذه العلوم،وقد صرح غير واحد منهم جهله لهذه المصطلحات ،منهم هاشم صالح مترجم كتب (محمد أركون) .54 ولم يفهمها إلا عند دراسته في المعاهد الفرنسية.

بينما مصطلحات القرآن تتجلى فيها السهولة والعذوبة والوضوح،كما قال سبحانه{**قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ**} [الزمر: 39/ 28] ،كما أن لغة المحققين من العلماء تتميز بالوضوح بعيدا عن التكلف والتصنع والتعجيز والتصعيب والتعقيد والتمويه ؛رغم تضلعهم في اللغة العربية وعلومها ، كالشافعي ومالك ،وسيبويه ،والخليل ، ما يدل على أن أصل هذه المصطلحات الدخيلة نابع من روح الغرب وثقافته التي تخالف دين هذه الأمة ومعارفها ، ومقاصدها في الحياة.

2– **الاعتماد على مصادر ومناهج واتجاهات غربية دخيلة، كالمنهج الهيرمينوطيقي،** وتركهم للمصادر الأصيلة في التفسير،قال حامد نصر أبو زيد:"وتعد الهيرمينوطيقيا الجدلية عند غادامر بعد تعديلها من خلال منظور جدلي مادي نقطة بدء أصلية للنظر إلى علاقة المفسر بالنص لا في النصوص الأدبية ونظرية التدبر فحسب ، بل في إعادة النظر في تراثنا الديني حول تفسير القرآن منذ أقدم عصوره حتى الآن"55

3–**استعمال نظريات لغوية غربية** مثل: البنوية، والتفكيكية، والسيميائية، مع تغييب المرجعية اللغوية الأصيلة ،حتى تنفتح دلالات النص وقد تناول محمد شحرور ألفاظاً ،وضع لها معني خاصا استنبطه وفق منهجه اللغوي منها: الكتاب، القرآن، الرسول، النبي، الرب، الإله، الشيطان،

الصور، الذكر، الفرقان، الساعة، الزمن، الدائم، الوقت، الباقي الخ... ،ولم يفرق في بين اللفظ المصطلح الذي أعطاه الشرع معنى محدداً مثل: الرب، والإله، والرسول،والنبي، والكتاب، والقرآن،واللفظ العادي الذي يستقريء معناه من معاجم اللغة مثل: الزمن، الدائم، الباقي، الوقت الخ ،ثم يبني على ما يصل إليه،وقد تجاهل شحرور الحقيقة السابقة حيث يصطنع الشارع ألفاظاً معينة ويعطيها المعاني الخاصة التي تكون مفتاحاً لفهم الدين.

ثالثا: أثر خطاب الهامش المعاصر على مناهج تأويل النص:

أ- دخول مسالك تأويلية غربية ،أو ما يسمى بنظرية التأويل المعاصر للنص القرآني، وهي ما تعرف بالمناهج الدخيلة في الدراسات القرآنية،ومن أهمها:

- المنهج الألسني السيميائي.
- المنهج التاريخي [التاريخانية].
- المنهج الهيرمنيوطيقي.
- المنهج الجدلي [الديالكتيكي].
- المنهج اللغوي التشطيري.

ولم يكتف رواد المدرسة الحداثية باعتماد هذه المناهج مع تهذيبها ؛بل أخضعوا لها النص القرآني معتمدين على أصول وقواعد هذه المناهج الغربية ،دون مراعاة لخصوصية المتكلم بهذا النص ، والمخاطب به ، والمكلف ببيانه ،كما صارت بديلة عن المناهج العتيقة الأصيلة.

قال أركون:"هناك ثلاثة اتجاهات معرفية متداخلة ينبغي أن تمزج بينها من أجل أن تتماشى مع المنظور الجديد...فهناك ثلاث بروتوكولات متداخلة أو

متفاعلة لقراءة القرآن كنص: القراءة التاريخية- الأنثروبولوجية- ، القراءة الألسنية السيميائية،القراءة اللاهوتية التفسيرية"

وقال:"فعلى أي قارئ أن يتزود بالتكوين العلمي والإحاطة بالأرضية المفهومية الخاصة باللسانيات والسيميائيات الحديثة"57.

فأركون يوظف علم اللسانيات والسيمياء في تحليل النص الديني ،أي إخضاعه للمناهج النقدية التي خضعت لها الدراسات التوراتية والإنجيلية،وبذلك ترك مناهج التفسير التي كانت سائدة في الدراسات القرآنية

خاتمة

الحمد لله الذي وفقني ويسر لي في هذه المداخلة بيان" أثر خطاب الهامش المعاصر على النص القرآني "،وأقف في ختام هذا البحث على ما خلصت إليه من نتائج وفوائد, والتي من أهمها :

1- الهامش المعاصر للنص القرآني أبعد ما يكون عن روح الأمة وثقافتها ومصطلحاتها

2- عدم وجود قراءة حداثية متكاملة تامة للنص القرآني، بل مجرد افتراضات واحتمالات خاصة .

3- يمكن أن يدرج الهامش المعاصر للنص القرآني في خانة الدراسات النقدية للقرآن الكريم.

4- أغلب من تصدر الخطاب الهامش المعاصرة ليسوا من العلماء المعروفين في حقل الدراسات الشرعية باستثناء بعضهم،ممن تكلم في عدالتهم ودينهم.

5- خطاب الهامش المعاصر منطلقاته إيديولوجيات غربية.

6- القراءات الحداثية غير متناهية،وناسخة لكل القراءات القبلية ،ومؤسسة لدين آخر خارج عن القرآن والسنة النبوية.

وأما أهم التوصيات فتتلخص فيما يلي :

1-إسناد بحوث نقدية للطلب في الدراسات العليا تتعلق بالمناهج والاتجاهات الدخيلة في الدراسات اللغوية أو القرآنية أو الدينية عموما.

2-المناقشة المستمرة لدعاة ورواد الحداثة خاصة من طرف الهيئات واللجان والمخابر المختصة.

هذا ما تم جمعه وبيانه في هذه المداخلة ونتائجها وتوصياتها.

أسأل الله تعالى أن ينفع به وأن يجعله في ميزان الحسنات إنه سميع قريب مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الإحالات

(1) ينظر: لسان العرب لابن منور،دار إحياء التراث العربي – بيروت- (7/ 97-98), ومعجم مقاييس اللغة: ابن فارس ،تحقيق:عبد السلام محمد هارون. مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط 1 : 1389هـ-1969. (5/ 356-357)

(2) J.Dubois,et all,Dictionnaire de Linguistiques, ed.Larousse, Paris- 1972 P 486 . FRANCE

(3) المهذب في علم أصول الفقه المقارن:عبد الكريم النملة ، مكتبة الرشد – الرياض –ط1 : 1420 هـ - 1999 م

(4) مفهوم النص:- دراسة في علوم القرآن- ط:1990م،الهيئة المصرية العامة للكتاب،ص:27.

(5) الفيروز أبادي، القاموس المحيط مادة :خطب

(6) الكتاب والقرآن قراءة معاصرة ، دار الأهالي ،دمشق ،ط1: 1992م ،ص:220.

(7) ينظر :المصدر نفسه،ص:226-227.

(8) ينظر : المصدر نفسه ،ص:223.

(9) هموم الفكر والوطن، مقال بعنوان" الوحي والواقع"دراسة في أسباب النزول،مكتبة الأنجلو المصرية (1/ 23).

(10) القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني،ترجمة:هشام صالح، ط2005:2م،دار الطليعة –بيروت- ص: 85.

(11) حسن حنفي: من العقيدة إلى الثورة (4/ 152-153)، مكتبة مدبولي، القاهرة ،دت،(2/ 465).

(12) هناك رسالة ماجستير للطالب :زكريا بورياح نوقشت في جامعة الجزائر"1" سنة:2013-2-2013م،قسم العقائد والأديان بعنوان: الداروينية وأثرها في القراءات المعاصرة، وقد بين فيها هذه المرجعية جيدا.

(13) الكتاب والقرآن ،ص:228.

(14) المصدر نفسه ،ص:106.

(15) المصدر نفسه ،ص:194.

(16) نقد الخطاب الديني ،مكتبة مدبولي،القاهرة ،ط: 1995:3م،ص93.

(17) نقد الخطاب الديني،ص:126.

(18) نقد الخطاب الديني،ص: 206.

(19) الفكر الأصولي واستحالة التأصيل ،ترجمة: هشام صالح، ط1999:11م،دار الساقي ، بيروت، ص:24.

(20) نقد الخطاب الديني،ص:206.

(21) الفكر الأصولي واستحالة التأصيل ص: 24 ،ترجمة: هشام صالح،ط1: 1987م،مركز الإنماء القومي –بيروت–

(22) النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، دار البناني– دمشق– 1997م،ص:405.

(23) المصدر نفسه:ص:29.

(24) الفكر العربي ،ترجمة: عادل العوا،ط3: 1983م، دار التنوير للطباعة والنشر– بيروت– ص: 451.

(25) المصدر نفسه ، ص: 29.

(26) ينظر:نافذة على الإسلام ،ترجمة: صياح الجهيم،دار عطية للنشر. ص:90–94– بتصرف–

(27)القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني،ترجمة:هشام صالح،ط2:2005،دار الطليعة–بيروت– ص:86

(28) النص،السلطة، الحقيقة ،ط2:1998م ،المركز الثقافي العربي، ص:33

(29) شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، ط2: 1998م ،دار سينا للنشر– القاهرة والانتشار العربي–بيروت– ص:68.

(30) تاريخية الفكر العربي الإسلامي،ترجمة: هشام صالح،ط2: 1996م، دار المعرفة الجامعية– القاهرة– ص:71.

(31) نحو نقد العقل الإسلامي، ترجمة: هشام صالح ،ط1 : 2009م، دار الطليعة،بيروت، ص: 200.

(32)العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب:محمد حامد الناصر،مكتبة الكوثر–الرياض–ط1: 1427م، ص:387.

(33) تاريخ الفكر العربي،ص:71.

(34) المصدر نفسه،ص:284.

(35) نقد الخطاب الديني،ص:

(36) المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك،،سلسلة عالم المعرفة، عدد رقم 232،المجلس الوطني للثقافة والفنون- الكويت-1998، ص: 209.

(37) مفهوم النص ،ص:24.

(38) مفهوم النص، ص:200-201.

(39) إشكالية القراءة وآليات التأويل،ط2005:7م، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء- ص: 91.

(40) المصدر نفسه، ص: 228.

(41) المصدر نفسه ، ،ض:49.

(42) العلمانيون والقرآن الكريم ،تاريخ النص : أحمد ادريس الطعان، ط1 :2008م، دار ابن حزم، ص:623.

(43)النص،السلطة،الحقيقة:حامد نصر أبو زيد ،ص:139 .

(44)تاريخ الفكر العربي الإسلامي،ص:145.

(45)الفكر الأصولي واستحالة التأصيل نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، ترجمة: هاشم صالح ،دار الساقي،بيروت، ط1: 1999م،ص:76.

(46) المصدر السابق،ص:159.

(47) نقد النص، علي حرب ،ط2005:4م، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء ،ص:20.

(48) نقد النص ،ص:20.

(49) الخطاب والتأويل،ط1: 200، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب- ص:143.

(50)محمد أركون وموقفه من تأويل القرآن الكريم، عبلة عميرش،رسالة دكتوراه، تخصص: العقيدة،قسم العقيدة ومقارنة الأديان،كلية أصول الدين ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة ،سنة المناقشة(2012م-2013م)، ص: 320.

(51) الفكر الإسلامي- قراءة علمية-، ترجمة: هشام صالح، ط2 :1996م، مركز الإنماء القومي ،بيروت،ص: 121.

(52)القرآن من التفسير الموروث،تعليق هاشم صالح،ط2 :2005م دار الطليعة لبنان ،ص:102.

(53) المصدر نفسه، ص: 36.

(54) مقدمته لكتاب :أين هو الفكر الإسلامي المعاصر .

(55) إشكاليات القراءة،ص: 49.

(56) القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني ،ص:39

(57) المصدر نفسه،ص:5